الفصل الثاني عشر:

الإعجاز البياني في القرآن الكريم

قضية الإعجاز البياني بدأت تفرض وجودها على العرب من أول المبعث، فمنذ أن تلا المصطفى عليه الصلاة والسلام في قومه ما تلقى من كلمات ربه، أدركت قريش ما لهذا البيان القرآني من إعجاز لا يملك أي عربي يجد حسَّ لغته وذوقها الأصيل، سليقةً وطبعًا، إلا أن يسلم بأنه ليس من قول البشر.

من هنا كان حرص طواغيت الوثنية من قريش، على أن يحولوا بين العرب وبين سماع هذا القرآن. فكان إذا أهلّ الموسم وآن وفود العرب للحج، ترصَّدوا لها عند مداخل مكة، وأخذوا بسبل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه من الإصغاء إلى ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من كلام، وقالوا: إنه السحر يفرق بين المرء وأبيه وأخيه، وبين المرء وزوجه وولده وعشيرته.

وفي الخبر: أن من طواغيت قريش وصناديد الوثنية العتاة من كانوا يتسللون في أوائل عصر المبعث خفية عن قومهم، ليسمعوا آيات هذا القرآن دون أن يملكوا إرادتهم.

روى «ابن إسحاق» في السيرة: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام المخزومي، والأخنس بن شريق الزهري، خرجوا ذات ليلة متفرقين على غير موعد، إلى حيث يستمعون من رسول الله ﷺ وهو يصلي ويتلو القرآن في بيته. فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، ولا أحد منهم يعلم بمكان صاحبيه.

المبحث الأول:

الدقة المعجزة في التعبير القرآني

الفرق في التعبير في زوجة سيدنا زكريا عليه السلام

فمرة يقول الله تعالى امرأة، كما في: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: 5] وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 40].

ولكنه يعبّر عنها بالزوجة في موضع آخر، في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ﴾ [الأنبياء 89، 90].

فلفظ امرأة يُطلق على المتزوجة وغير المتزوجة، ولما كانت الحياة الزوجية غير كاملة في أتم صورها وحالاتها لكونها عاقرًا أطلق عليها القرآن (امرأة).

وبعدما زال المانع وأصلحها الله فحملت، عندها تحققت الزوجية الكاملة على أتم صورها.

والأمثلة على ذلك بالمئات تجدها في كل مقطع من مقاطع سور القرآن الكريم وإليكم مثالًا على ذلك:

قال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

لماذا لم يقل: أوهن الخيوط خيط العنكبوت؟؟

فلو كان القرآن من عند محمد ﷺ لقال ذلك.. ولكن هذا يخالف الحقيقة العلمية الثابتة بأن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الفولاذ.

فكان التعبير الدقيق: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾.

ذكر: «تستطع» و«تسطع»، «اسطاعوا» و«استطاعوًا»

ذكر الله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر في سورة الكهف ثلاثة أحداث أثارت اعتراض سيدنا موسى وهي خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بدون أجر، وقبل أن يفارق الخضر سيدنا موسى ذكر له الحكمة من الثلاثة أفعال، ولكنه قبل أن يؤوِّل سببها قال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78].

وبعدما أوَّل لسيدنا موسى الأحداث قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82].

فقد أثبت التاء في «تستطع» وحذفها في «تسطع» فما الحكمة من ذلك؟؟

لقد راعى السياق القرآني الحالةالنفسية لسيدنا موسى عليه السلام قبل أن يعرف تأويل سبب تلك الأفعال التي أنكرها، فناسَب إظهار التاء في «تستطع» لبيان ثقل هذا الأمر عليه بسبب الهم والفكرالحائر. فصار بناء الفعل ثقيلًا (خمسة أحرف) مناسب ثقل الهم ثقل بناء الفعل.

وحذف التاء من كلمة «تسطع» مما جعل بناء الفعل مخففًا (أربعة أحرف) وهذا التخفيف مناسب للتخفيف في مشاعر سيدنا موسى بعد أن علم الحكمة من أفعال الخضر فارتاحت نفسه وزال ثقلها.

ومثل ذلك في نفس السورة الكريمة عند الحديث عن سد ذي القرنين الذي بناه ليمنع خروج يأجوج ومأجوج قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97].

معنى «يظهروه»: يتسلقوه، ومعنى «نقبًا»: نقضه بالحفر.

حذفت التاء في: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ لأن المعنى هو عدم استطاعتهم تسلق السد لكونه أملسًا وخاليًا من أي نتوء يمكن الإمساك به.

وبما أن التسلق يحتاج خفة ورشاقة ومهارة، وكلما كان الشخص أخف كان

تسلقه أسهل، جاء تخفيف بناء الفعل كأنه يشارك المتسلق في تحمل بعض أحماله.

أما ﴿وَمَا ٱسۡطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أثبت التاء لأن ثقب الجدار يحتاج معدات ثقيلة، فكلما كانت المعدات أثقل كان النقب في السد أيسر، وكذلك لأن النقب يحتاج إلى جهد عضلي أكبر.

وهنالك قاعدة بلاغية تقول: «الزيادة في المبنى تفيد الزيادة في المعنى».

نكرة مكررة ثلاث مرات في آية واحدة

قال تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

يجب التذكير بالقاعدة البيانية: أن النكرة إذا تكررت فإنها في كل مرة تفيد معنى جديدًا.

(ضَعْف) نكرة تكرارها في نفس الموضع يفيد أن الضعف الأول غير الثاني وغير الثالث.

المراد بالضعف الأول: النطفة (ضعيفة فهي ماء مهين).

والضعف الثاني: الطفولة (لأنه بحاجة إلى رعاية أمه في مرحلة الرضاع وعناية خاصة حتى يجتاز مرحلة المراهقة ويصل البلوغ).

والضعف الثالث: الشيخوخة (لأنه يعود في مرحلة الشيخوخة ضعيفًا عاجزًا.. ضعيف الفكر.. ضعيف الحركة والسعي والنشاط).

واللطيف في الآية أن (قوة) وردت نكرة وكررت مرتين.

إذًا: القوة غير القوة.

القوة الأولى: قوة فترة الصبا (الصبي قوي مندفع كثير الحركة).

القوة الثانية: قوة الشباب (قوة الجسم والمشاعر والأحاسيس والهمة والعزيمة والانطلاق في الفكر والأحلام والطموح).

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا﴾ القوة الأولى تقود إلى القوة الثانية.

هذه الآية الكريمة تلخص حياة الإنسان على الأرض وأنها تقوم على خمس مراحل:

1 ـ الضعف: وهو جنين في بطن أمه.

2 ـ الضعف: وهو رضيع في حضن أمه.

3 ـ القوة: وهو صبي مندفع.

4 ـ القوة: وهو شاب نشيط فاعل.

5 ـ الضعف: وهو شيخ عجوز هرم.

هنا روعة الإعجاز البياني القرآني، التعبير الحق البليغ، عن أدق التفاصيل، بأقل عدد من الكلمات، في نظم محكم بديع، دون أن يخل بالسياق. اللّهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا.

التدرج اللغوي للتعبير عن رحلة الضلال

لنتأمل إحدى كلمات القرآن ونظام تكرارها بيانيًا وعدديًا. ونجري بحثًا عن كلمة (حقَّت) في القرآن فنجد هذه الكلمة تكررت 5 مرات في كل القرآن في 4 سور:

1 ـ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: 33].

2 ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: 96].

3 ـ ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ

هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36].

4 - ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

5 - ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: 6].

دائمًا استخدمت كلمة (حَقَّتْ) في القرآن للتعبير عن حقيقة واحدة وهي أن الذين فسقوا وكفروا لا يؤمنون، ضالون كافرون أصحاب النار. هذه الوحدة اللغوية في كامل القرآن لتدلُّ على أن منزل القرآن واحد لا شريك له. وهذا التناسق البياني هو دليل على أن القرآن كتاب لا يمكن تقليده أو الإتيان ولو بجزء أو سورة منه.

وردت كلمة (حقَّت) في 5 آيات تدرجت كما يلي:

1 - في الآية الأولى الحديث عن ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ فهؤلاء ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وكما نعلم أول خطوة على طريق جهنم تبدأ بالخروج (الفسق) عن أمر الله تعالى.

2 - ثم في الآية الثانية جاء الحديث عن الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه هي المرحلة الثانية بعد الفسق - عدم الإيمان.

3 - في الآية الثالثة تحدث الله عن أولئك الذين ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾، إذن عدم الإيمان يؤدي إلى الضلال.

4 - في الآية الرابعة كان الحديث عن ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالضلال يؤدي إلى الكفر والإشراك بالله تعالى، لذلك جاءت العبارة: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

5 - وأخيرًا ختم الله هذه الآيات الخمسة بقوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهذه هي النتيجة المنطقية لكل من يفسُق... لا يؤمن... يضلّ ... يكفر... فمصيره: إلى النار فهي تكفيه.

وتأمل أخي الحبيب هذا التدرج اللغوي لرحلة تنتهي بالنار والعياذ بالله تعالى:

﴿فَسَقُوٓاْ . . .﴾ بداية الرحلة هي الفسق عن أمر الله تعالى.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعد الفسق يأتي عدم الإيمان بالله تعالى.

﴿ٱلضَّلَٰلَةُ . . . . . .﴾ ثم يأتي الضلال والضياع.

﴿كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وتبدأ رحلة العذاب.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ والنتيجة المؤلمة لهذه المراحل هي النار!

كل هذه المفاهيم وغيرها لها نظام محسوب بدقة، فالله تعالى يعلم ما يصنع وهو يسيِّر الكون بما فيه.

سبب ذكر جزاء الشفاعة الحسنة بالنصيب وجزاء الشفاعة السيئة بالكفل

قال تعالى في سورة النساء: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا﴾ [النساء: 85] لِمَ قال تعالى عن الشفاعة الحسنة ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَاۖ﴾ وعن الشفاعة السيئة ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۗ﴾؟

من معاني (الكِفل) في اللغة: النصيب المساوي، المثل. والكفيل يضمن بقدر ما كفل ليس أكثر.

أما (النصيب) فمطلق غير محدد بشيء معين.

لذلك قال الله ﷻ عن السيئة يكن له كفل منها... لأن السيئة تجازى بقدرها، قال تعالى ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: 40].

أما الحَسَنة فتضاعف كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160]. وقال ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [القصص: 84].

فقال عن حامل السيئة أن له الكفل أي المثل، أما صاحب الشفاعة الحسنة فله نصيب منها والنصيب لا تشترط فيه المماثلة وهذا من عظيم فضل الله ﷻ.

وورد في الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات**»، ثم بين ذلك: «**فمن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة**».

اختيار التعبير القرآني لبعض الكلمات التاريخية

يبرز في هذا البحث دقة اختيار التعبير القرآني لبعض الكلمات التاريخية:

ذكر القرآن الكريم كلمة (العزيز) في قصة يوسف، وعبّر بكلمة (الملك) في القصة نفسها، وذكر كلمة (فرعون) في قصة موسى.

فاعرف أن هذه ترجمات دقيقة لما كان يُستعمل في تلك الأزمان السحيقة فـ (العزيز) أدق ترجمة لمن يقوم بذلك المنصب في حينه، وأن المصريين القدامى كانوا يفرقون بين الملوك الذين يحكمونهم فيما إذا كانوا مصريين أو غير مصريين، فالملك غير المصري الأصل كانوا يسمونه « الملك »، والمصري الأصل يسمونه «فرعون»، وأن الذي كان يحكم مصر في زمن يوسف غير مصري، وهو من الهكسوس فسماه (الملك)، وأن الذي كان يحكمها في زمن موسى هو مصري فسماه (فرعون)، فسمى كل واحد بما كان يُسمى في الأزمنة السحيقة.

يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

لم يكن أسلوب التوكيد في كلام العرب ـ على كثرته ـ لونًا من ألوان الزينة، أو شكلًا من أشكال الحشو الذي يرهق النص ويثقله بما لا فائدة منه ولا جدوى. وإنما هو ركن من أركان البناء اللغوي والبياني الذي ذخرت به النصوص العربية شعرًا ونثرًا. فالعرب لا تؤكد كلامها إلا إذا كان المخاطب في حاجة إلى ذلك، وتأتي بمؤكد واحد إن كان المخاطب مترددًا في تصديق ما يقال أو ظنَّ ذلك منه،

في حين تأتي بأكثر من مؤكد ـ وقد تشفع ذلك بالقسم ـ إن كان المخاطب منكرًا ما يسمع كل الإنكار أو ظنَّ منه ذلك.

سنتوقف في بحثنا هذا أمام آيات من سورة يوسف عليه السلام نعرض خلالها مواقف من القصة، في محاولة منا لتلمس الوجه البياني الذي يمثله أسلوب التوكيد في السورة.

فسيدنا يوسف عليه السلام كان أحد أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام، وكان أحب الأولاد إليه، أما أخوته فكانوا يغارون منه، فأرادوا إبعاده، واتفقوا على أن يرموه بالبئر، فالتقطه المارين، وحُمل يوسف عليه السلام إلى مصر، ليباع عبدًا، وينشأ في بيت العزيز.

ولما بلغ أشده أخذت امرأة العزيز تراوده عن نفسه، غير أن سيدنا يوسف الذي اجتباه الله لحمل رسالته ما كان له أن يقع في الخطيئة فـ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: 23]، وقد جاء ردّه هذا مؤكدًا بـ (إنّ) في موضعين:

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ﴾: إن سيدي أكرمني وأحسن إقامتي عنده وأنعم عليّ. وتمثل هذه الجملة (المقدمات).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: إنّ الإساءة إلى من أحسن إليّ هو ظلم، عاقبته الخيبة والخسران. وتمثل هذه الجملة (النتائج).

والقولان جاءا مؤكدين بـ (إنّ).

إذًا، إن المقدمات التي جاءت مؤكدة لا شك ستفضي إلى نتائج مؤكدة أيضًا. وهذا كله من باب إقناع امرأة العزيز بالحجة والمنطق، وهو في الآن ذاته شريعة الله القائمة على العدل، ولو خلت إحدى الجملتين من التوكيد لاختلّ التوازن بين المقدمات والنتائج.

لكن امرأة العزيز أصرّت على ما عزمت عليه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ والجملة مؤكدة بـ (لقد) التي تدل على قسم محذوف قبلها، وهذا التوكيد المؤيد بالقسم دليل

على أن الأمر قد حدث دون شك، وأنّ امرأة العزيز قد همّت بيوسف حقيقة.

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 23] وهذه الجملة تنفي الأمر عن سيدنا يوسف من ناحيتين:

الناحية الأولى: وجود لولا التي تعني أن أمر (الهمّ) لم يحدث أصلًا. فقولنا: لولا المطر يبس الزرع. لا يعني أن الزرع قد يبس بحال من الأحوال!؟

وقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 24] يعني أيضًا أن الهم لم يحدث أصلًا.

وقد ذهب بعض النحاة إلى أن جواب لولا في الآية محذوف، وما قبلها ليس جوابًا، إذ لا يصح أن يأتي جواب لولا قبلها. وقد خالف نحاة آخرون هذا الرأي.

وعلى أية حال نقول: إنما حذف جواب لولا ـ إن اتفقنا مع أصحاب هذا الرأي ـ لدلالة ما قبلها عليه، ومن ثم فالمحذوف يحمل الدلالة ذاتها، وهذا يتفق والمعنى الذي نذهب إليه بأن الهم لم يحدث من جانب سيدنا يوسف.

أما الناحية الثانية: فهي مجيء فعل (الهمّ) في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ دون توكيد، على غير ما جاء به الفعل المنسوب إلى امرأة العزيز ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، إذ جاء مؤكدًا كما ذكرنا آنفًا، وهذا يدل على أن الأمرين غير متماثلين، وإلا فما الدلالة التي يحملها توكيد الفعل الأول، وعدم توكيد الفعل الثاني إن كان الفعلان متساويين.

ولما استبقا الباب، ووجدا العزيز لديه بادرت امرأة العزيز فـ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25].

نلاحظ أن كلام امرأة العزيز هنا لم يأت مؤكدًا، على الرغم من أن الموقف يتطلب ذلك، فأية دلالة يحملها هذا الأمر!؟

إذا كان الكلام المؤكد يراد منه إزالة التردد أو الإنكار من نفس المخاطب، فإن الأمر عند العزيز لم يدخل بعد حيز التفكير حتى يشكك فيما يسمع أو ينكره،

فأرادت امرأته أن تبادره بقول مصبوغ بصبغة الحقيقة الواقعة، بلسان الواثق من نفسه. ولو جاءت ـ في قولها ـ بمؤكدات لوضعت نفسها في موضع المتهم المدافع عن نفسه، وهي لم ترد ذلك، بل أرادت وضع نفسها في موضع المدّعي، لتجعل يوسف عليه السلام في موضع المتهم الذي يضطر إلى أساليب التوكيد ـ على اختلافها ـ دفاعًا عن نفسه، وردًّا للتهمة، ونفيًا لها، فالبيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر.

ولعل امرأة العزيز لم تكن تحفل بموقف زوجها من الأمر، ولا يهمها إن اقتنع ببراءتها أم لا، فهي لا تحتاج والحالة هذه إلى توكيد الأمر لدفع الشبهة لدى زوجها (إن وجدت).

ودليلنا على ذلك أن امرأة العزيز عادت إلى مراودة يوسف عن نفسه أمام جمع من النسوة دون أن تقيم لزوجها وزنًا أو تحسب له حسابًا، ولو كانت تخشاه لما أقدمت على ذلك.

وعلى أيّ وجه كان الأمر، فإن سيدنا يوسف عليه السلام ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: 26] هكذا دون توكيد، فلم يضع نفسه في موقف المتهم المدافع عن نفسه، ولم يأت جوابه بنفي الأمر الذي اتهمته به، فلم يقل مثلًا: (لم أرد بأهلك سوءًا) وإنما ردّ الاتهام بمثله (من وجهة نظر العزيز)، وأجاب بلهجة واثقة ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

الطرفان إذًا امرأة العزيز ويوسف عليه السلام كل منهما يتهم الآخر، وليس ثمة بيّنة إلا قميص يوسف الذي قُدَّ من دبر. لكن الاحتكام إلى هذا الأمر لو جاء على لسان يوسف عليه السلام لكان رأيه في معرض المدافع عن نفسه، وقد لا يُقبل اقتراحه هذا فـ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: 26] وجاءت شهادته نقضًا لادعائها، وتثبيتًا لقول يوسف عليه السلام وتنزيهًا له مما اتهم به بهتانًا وزورًا.

وتعود امرأة العزيز إلى ما عزمت على فعله، وعلى مرأى ومسمع النسوة اللواتي كنَّ يلمنها على مراودتها يوسف عن نفسه ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ

وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: 32].

انظر إلى توكيدها أمر مراودة يوسف عن نفسه ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وقد جاء هذا التأكيد بعد إدراكها أن النسوة قد رأين في حُسْنِ يوسف عذرًا مقبولًا لما أقدمت على فعله، فلم يعد ثمة حرج إذًا في توكيدها الإقدام على هذا الأمر.

ثم تقول ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ لقد حمل كلامها تهديدًا ووعيدًا، وجاء حافلًا بالمؤكدات التي تصور عزمها على إنفاذ تهديدها فأكدت بـ ﴿لَئِن﴾ الدالة على قسم محذوف قبلها، وباللام ونون التوكيد الثقيلة في ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، واللام ونون التوكيد الخفيفة في ﴿لَيَكُونًا﴾.

رأى بعض النحاة أن مجيء ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بنون التوكيد الثقيلة، و﴿لَيَكُونًا﴾ بنون التوكيد الخفيفة معناه أن حرصها على سجنه كان أكبر من حرصها على إذلاله، والأمر فيما نرى يحتمل وجهًا آخر والله أعلم: لقد أكدت امرأة العزيز بنون التوكيد الثقيلة ما هي قادرة على فعله، أي سجن يوسف عليه السلام، أمّا الذل والصَّغار فأمران معنويان لا يملكهما إلا الله ﷻ. والإذلال أمر لا يخرج عن كونه مجرد احتمال، فكيف لها أن تؤكد ما لا قدرة لها عليه، ولا بيدها حدوثه...؟

ولنتأمل فيما آلت إليه الأمور:

توعدت امرأة العزيز يوسف عليه السلام بالسجن، بقولها: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ وقد كان لها ما أرادت ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: 35] وانظر إلى البيان الإلٰهي في تكرار لفظة ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ مؤكدة بالمؤكدين نفسيهما في الحالتين، إشارة إلى أن امرأة العزيز نفذت تهديدها كما أرادت تمامًا.

أما الإذلال فليست تمتلك وسائله أو أدواته، لأنه خارج عن إرادتها فلم يكن لها ذلك، إذ كان سيدنا يوسف في سجنه داعيًا إلى الله، مبلغًا رسالته، ناصحًا،

مستشارًا فيما يجهل علمه سواه (تأويل الرؤيا)، وكان - حسب ما جاء على لسان الفَتيين ـ من المحسنين، ثم لما خرج من سجنه جعله الملك على خزائن الأرض، وفي ذلك كله عزّ ورفعة لا إذلال وصَغَار.

ظهور براءة يوسف

ولما سأل الملك امرأة العزيز والنسوة عن أمر يوسف ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 51] إنها تقر بذنبها بقولها ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾وجاءت الجملة هنا دون توكيد، كونها جاءت في سياق الاعتراف بذنب يدعو للخجل أمام الملك، فلم يكن من البلاغة إذًا أن يأتي اعترافها هذا مؤكدًا، ثم تضيف ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهنا تأتي بمؤكدين (إنّ ـ اللام في لمن) زيادة في تأكيد براءة يوسف وصدقه. وهذا أيضًا مما يدحض قضية الهمّ التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ والتي سعى المشككون إلى إثارتها وتأويلها بالشكل الذي يرغبون.

ثم تقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ وتوكيدها أن النفس أمّارة بالسوء بمؤكدين (إنّ ـ اللام في لأمّارة)، حُسْن اعتذار وتبرير لفعل شائن صدر عنها، إذ أكدت أن الأمر خارج عن إرادتها.

ولنتذكر اعتراف امرأة العزيز أمام النسوة وقد هتكت أمامهن ستر الحياء: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ كيف جاء الاعتراف مقترنًا بالتوكيد، بعدما رأت في موقف النسوة عند رؤيتهم يوسف ما يبرر فعلها.

أما أمام الملك فالأمر مختلف حتمًا، فجاء اعترافها مبطنًا بالحياء ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

الأرض يوم القيامة

هذه الأرض التي نراها ثابتة ومستقرة سوف تهتزُّ وترجُف يوم القيامة. وهذه حقيقة مستقبلية لاشك فيها، وما لغة الأرقام والنظام الرقمي إلا دليل قوي جدًا على

صدق كلام الله تعالى. تكررت كلمة (تَرْجُف) مرتين بالضبط في كامل القرآن في سورتين:

1 ـ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: 14].

2 ـ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: 6].

إذن كلمة (تَرْجُفُ) تسبقها دائمًا كلمة (يوم) ليؤكد لنا الله تعالى أن الأرض ستهتز وترجف في ذلك اليوم ـ يوم القيامة ـ. فجاء التسلسل الزمني مطابقًا لتسلسل الآيتين: الآية الأولى تحدثت عن اهتزاز الأرض، ثم في الآية الثانية تحدث الله عن اهتزاز الأرض المهتزة أصلًا، وهذا لزيادة الاهتزاز والارتجاف.

لنعد إلى التساؤل التقليدي: مَن الذي وضع هذه الكلمة في هاتين السورتين؟ ومَن الذي حدَّد استخدام هذه الكلمة بما يخصّ يوم القيامة وليس أي شيء آخر؟ أليس هو رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم.

الترتيب الزمني للقصص

يبشر الله عباده المؤمنين برسول كريم اسمه أحمد، وتأتي البشرى على لسان روح الله وكلمته المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول هذا الرسول الكريم لبني إسرائيل مبشرًا لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: 6]. ونحن نعلم أنه لا نبي بعد رسول الله، فهو خاتم النبيين.

إن عبارة ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ في هذه الآية تدل على زمن، هذه العبارة تكررت في القرآن، ونسأل: كيف تكررت هذه العبارة وعلى لسان مَن وردت؟ وما هو ترتيب الآية السابقة التي جاءت على لسان المسيح عليه السلام؟ لنستمع إلى هذه الآيات الأربعة:

1 ـ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133].

2 - ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 150].

3 - ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: 35].

4 - ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: 6].

إن كلمة ﴿بَعْدِى﴾ لم ترد إلا في هذه الآيات الأربعة من القرآن، ولكن السؤال على لسان من وردت هذه الآيات؟ إذا استعرضنا هذه الآيات من القرآن وجدنا أن:

1 - الآية الأولى في سياق قصة يعقوب عليه السلام.

2 - الآية ثانية في سياق قصة موسى وهارون عليهما السلام.

3 - الآية الثالثة في سياق قصة داود وسليمان عليهما السلام.

4 - الآية الرابعة في سياق قصة المسيح عليه السلام والبشرى.

هذه لغة القصة في كتاب الله تعالى ولكن ماذا تخبرنا لغة التاريخ؟

إن تسلسل هذه الآيات الأربعة مطابق تمامًا للتسلسل التاريخي لهذه القصص، فنحن جميعًا نعلم دون خلاف أن التسلسل التاريخي للأنبياء الأربعة هو: يعقوب ثم موسى ثم داود ثم المسيح عليهم السلام، لذلك جاء تسلسل الآيات الأربعة موافقًا لهذا الترتيب. وهنا ربما ندرك الحكمة من أن ترتيب سور المصحف يختلف عن ترتيب نزول سور القرآن، لأن هذا الترتيب فيه معجزة.

ولكن هنالك ملاحظة مذهلة وهي أن كلام المسيح عليه السلام والبشرى التي جاء بها، ورد في آخر هذه الآيات وهذا دليل على أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ.

المبحث الثاني:

مظاهر إعجاز النظم في القرآن الكريم

لإعجاز النظم عدة مظاهر تتجلى فيها:

المظهر الأول: «**الخصائص المتعلقة بالأسلوب**».

وإليك هذه الخصائص:

الخاصة الأولى: إن هذا الأسلوب يجري عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، ويقوم في طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم. بيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظمًا أو نثرًا، وللنظم أعاريض، وأوزان محددة معروفة، وللنثر طرائق من السجع، والإرسال وغيريهما مبينة ومعروفة. والقرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعه، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك، ولكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته، بل يسري في صياغته، وتآلف كلماته، وتجد في تركيب حروفه تنسيقًا عجيبًا يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحنًا مطربًا يفرض نفسه على صوت القارئ العربي كيفما قرأ، طالما كانت قراءته صحيحة. ومهما طفت بنظرك في جوانب كتاب الله تعالى ومختلف سوره وجدته مطبوعًا على هذا النسق العجيب فمن أجل ذلك تحير العرب في أمره، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائفه فكان أن انتهى الكافرون منهم إلى أنه السحر، واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين. وإليك أيها القارئ الكريم بعض الأمثلة التي توضح هذه الحقيقة، وتجليها، قال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ

﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: 1 ـ 6].

وهذه الآيات بتأليفها العجيب، ونظمها البديع حينما سمعها عتبة بن أبي ربيعة وكان من أساطين البيان استولت على أحاسيسه، ومشاعره، وطارت بلبه، ووقف في ذهول، وحيرة، ثم عبر عن حيرته وذهوله بقوله: «والله لقد سمعت من محمد قولًا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، والله ليكونن لقوله الذي سمعته نبأ عظيم».

وهذه الحقيقة توجد في سائر كتاب الله لا تتخلف في سورة من سوره ولا في آياته، ومن أجل ذلك عجز أساطين البيان عن الإتيان بأقصر سورة من مثله.

الخاصة الثانية: هي أن التعبير القرآني يظل جاريًا على نسق واحد من السمو في جمال اللفظ، وعمق المعنى ودقة الصياغة وروعة التعبير، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعود والوعيد وتلك حقيقة شاقة، بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى فحول علماء العربية والبيان.

وبيان ذلك أن المعنى الذي يراد عرضه، كلما أكثر عمومًا وأغنى أمثلة وخصائص كان التعبير عنه أيسر، وكانت الألفاظ إليه أسرع، وكلما ضاق المعنى وتحدد، ودق وتعمق كان التعبير عنه أشق، وكانت الألفاظ من حوله أقل.

ومهما رأيت بليغًا كامل البلاغة والبيان، فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها، فربما جاء بالغاية ووقف دونها، غير أنك لا تجد هذا التفاوت في كتاب الله تعالى، فأنت تقرأ آيات منه في الوصف، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في القصة، وتقرأ بعد ذلك مقطعًا في التشريع وأحكام الحلال والحرام، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا في أوج رفيع عجيب

من الإشراق والبيان، وتنظر فتجد المعاني كلها لاحقة بها شامخة إليها. ودونك فاقرأ ما شئت من هذا الكتاب المبين متنقلًا بين مختلف معانيه، وموضوعاته لتتأكد من صدق ما أقول، ولتلمس برهانه عن تجربة ونظر.

الخاصة الثالثة: أن معانيه مصاغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون في المدارك، والثقافة، فستجد أن الآية تعطي كلًا منهم معناها بقدر ما يفهم، وأن كلًا منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه.

وفي القرآن الكثير من هذا وذاك فلنعرض له مثال:

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61]. فهذه تصف كلًا من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ولها عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولها جذور بعيدة يفهمها الباحثون والمتخصصون، والآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاثة للمعنى، فتعطي طاقته وفهمه.

فالعامي من العرب يفهم منها أن كلًا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وإنما غاير في التعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعًا للفظ، وهو معنى صحيح تدل عليه الآية، والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور والحرارة فلذلك سماها سراجًا، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه.

الباحثون في القرآن يجمعون على إعجازه

الجاحظ ورأيه في بلاغة القرآن:

الجاحظ هو مؤسس البيان العربي بلا منازع، هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، المعروف بالجاحظ البصري ولد سنة 150هـ وتوفي سنة 255هـ.

ففي رسالة له بعنوان حجج نبوية يقول: «إن محمدًا ﷺ مخصوص بعلامة لها في العقل موقع كموقع فلق البحر في العين. ذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة مع من فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء، والحكماء وأصحاب الرأي والمكيدة، والتجارب والنظر في العامة: «**إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي، وصدقتكم في تكذيبي**».

مسيحو العصر الحديث يعترفون بعظمة القرآن

اعترف الدكتور ماردريس ـ المستشرق الفرنسي ـ بعظمة القرآن الكريم وذلك بعد أن كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة (62) سورة من السور الطوال التي لا تكرار فيها، ففعل وقال في مقدمة ترجمته الصادرة 1926م: أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلّ وعلا فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الخالق الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلٰهًا، والحق الواقع أن أكثر الكتّاب شكًا وارتيابًا قد خضعوا لسلطان تأثيره.

من روائع التشبيه في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

شبه القرآن حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب، وزين بزخارفها وجه الأرض

كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة فكأنها لم تكن بالأمس.

تأمل بعقلك وخيالك وذوقك نظم الآية الكريمة أنها مكونة من عشر جمل لو سقط منها شيء اختل التشبيه، وانظر إلى هذه الجمل تجد كل جملة تعبر عن مشهد من مشاهد الحياة الدنيا، وقد رتبت ترتيبًا عجيبًا كأن كل جملة منها تلد التي تليها، وقد تكونت كل جملة من طائفة من الكلمات تألفت بأصواتها وظلالها وأجراسها فعبرت أصدق تعبير عن المشهد الذي استقلت به، بحيث إذا أخرت أو قدمت أو غيرت كلمة بأخرى أو حرفًا بآخر اختل المعنى، وتبعثرت مشاهد الصورة الدنيوية.

- قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: 18].

الذين كفروا في ضياعها، وذهابها إلى غير عودة بهيئة رماد تذروه الرياح وتذهب به بددًا إلى حيث لا يتجمع أبدًا.

تأمل نظم الآية تجد كل كلمة قارة في مكانها، مطمئنة في موضعها لا تشكو قلقًا ولا اضطرابًا، معبرة في دقة وصدق عن معناها، وتأمل تناسق الكلمات وتألقها، وترتيب الجمل وتعانقها، ومخارج الحروف وأصواتها، وإيحاءات الألفاظ وإشاراتها تجد نظمًا عجيبًا لا يقدر عليه إلا خالق الأرض والسمٰوات.

تأمل كلمة «رماد» إنها توحي بخفة الوزن، وتأمل «اشتدت» فإنها توحي بسرعة الرياح، وتأمل كلمة «عاصف» فإنها توحي بالعنف.

إنما من يقرأ الآية الكريمة، ويتذوق حلاوتها يخيل إليه أنه يرى هذه الصورة الغيبية الخفية أمام عينيه وأنه يلمسها ويتقراها بيديه.

- قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

شبه القرآن الكريم حال هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادًا في لجوئهم

واحتمائهم بهؤلاء الأنداد الضعفاء المتناهين في الضعف بحال العنكبوت حينما تأوي إلى بيتها الضعيف الواهن وتحتمي به.

إنها تصور لك هؤلاء العباد الغافلين بصورة العناكب الضئيلة الواهنة، وتصور لك هؤلاء الضعفاء العاجزين بصورة بيت العنكبوت الذي يضرب به المثل في الضعف والوهن.

وأظنك أيها القارئ الكريم لست في حاجة إلى أن أحدثك عن نظم هذه الصورة البلاغية فذلك متروك لذوقك وإحساسك، ولكنني أدعوك إلى النظر والتأمل في الكلمات التي اختيرت للمشبه به ونظمت منها صورته: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾. هل في مقدورك أو في مقدور أي بليغ مهما كان حظه من الفصاحة البيانية، ومهما كان يحفظ من مفردات اللغة العربية أن يأتي بألفاظ تسد مسد هذه الألفاظ التي نظمت منها صورة المشبه به؟، إن أحدًا من البشر لن يستطيع، واللغة العربية على اتساع مفرداتها ليس فيها ما يسد مسد هذه الألفاظ.

إنها الصياغة الإلٰهية يقف البشر أمامها عاجزين حيارى مذهولين.

- قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: 22 ـ 24].

شبه القرآن الكريم الحور العين باللؤلؤ المكنون في الصفاء والنقاء والهدوء والصيانة.

تأمل نظم هذه الصورة التشبيهية الإلٰهية أنه فوق طاقة البشر. ثم تأمل هذه الكلمة العجيبة «اللؤلؤ» هل في مقدورك أو في مقدور أي بليغ مهما أوتي من البراعة والبيان أن يأتي بكلمة أخرى تؤدي معناها، وتصور ما صورته؟ ثم تأمل الدقة في صفة هذا اللؤلؤ بكونه مكنونًا.

إن اللؤلؤ فيه الصفاء والهدوء والنقاء، وهو أحجار كريمة من شأنها أن تصان ويحرص عليها.

تأمل الارتباط العجيب والصلة الوثيقة بين الحور العين واللؤلؤ المكنون، إنه الإعجاز يلبس ثوب التشبيه فيقف البلغاء أمامه ضعفاء قد استولت عليهم الحيرة وسيطرت على عقولهم الدهشة، وداعبت أنامل الإعجاب حبات قلوبهم، فخروا ساجدين لعظمته، وشهدوا بأنه البيان الإلٰهي الذي لا يقدر عليه بشر.

من روائع الكناية في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223] لقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية بكلمة «الحرث» عن المعاشرة الزوجية.

إن هذه الكناية الفردية مما انفرد به القرآن الكريم فهي لطيفة دقيقة راسمة مصورة، مؤدية مهذبة، فيها من روعة التعبير وجمال التصوير، وألوان الأدب والتهذيب ما لا يستقل به بيان، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن. إنها عبرت عن المعاشرة الزوجية التي من شأنها أن تتم في السر والخفاء بالحرث، وهذا نوع من الأدب رفيع وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية، وتنطوي تحته معانٍ كثيرة تحتاج في التعبير عنها إلى آلاف الكلمات، انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوجة في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، وذلك النبت الذي تخرجه الزوجة، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح، كل هذه الصور والمعاني تنطوي تحت كلمة «الحرث» أليست هذه الكلمة معجزة بنظمها وتصورها؟

هل في مفردات اللغة العربية ـ على كثرتها ـ ما يقوم مقامها ويؤدي ما أدته ويصور ما صورته. إن المعنى لا يتحقق إلا بها، وعن التصوير لا يوجد بسواها.

إعجاز في نغم القرآن

إنك إذا قرأت القرآن قراءة سليمة، وتلاوة صحيحة، أدركت أنه يمتاز بأسلوب إيقاعي ينبعث منه نغم ساحر يبهر الألباب، ويسترق الأسماع، ويسيل الدموع من العيون، ويستولي على الأحاسيس والمشاعر، وأن هذا النغم يبرز بروزًا

واضحًا في السور القصار والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة، ويتوارى قليلًا أو كثيرًا في السور الطوال ولكنه ـ على كل حال ـ ملحوظ دائمًا في بناء النظم القرآني. إنه تنوّع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه.

ولعلنا لا نخطئ إن رددنا سحر هذا النغم إلى نسق القرآن الذي يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعًا، يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب: «على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعًا، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية التي تغني عن القوافي، وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا فجمع النثر والنظم جميعًا».

محاولات تحدي القرآن

حاول الكثيرين ممن أخذ القرآن بلب عقولهم؛ تحدي القرآن، فعجزوا عن ذلك، وأصيبوا بالخيبة والفشل الذريع، فكيف يقارن كلام العباد بكلام رب العباد؟، ولعل أهم القصص التي تجسد لنا هذه المحاولات، هي:

قصة لبيد بن أبي ربيعة ﷺ ذلك الشاعر الصنديد، الذي اعترفت العرب جميعًا بشاعريته، عندما سمع تحدي القرآن للناس، ولم يكن قد سمع به، كتب أبياتًا من الشعر وعلقها على ستار الكعبة، فرأى ذلك أحد المؤمنين، فأخذته عزة الإسلام فكتب آيات من القرآن فوضعها بجانبها.

وعندما جاء الشاعر العربي لبيد من الغد، شاهد ورقة بجانب شعره فقرأها فإذا هي آيات من كتاب الله، فتلفت حوله، وتعجب عقله، وقال: والله ما هذا بقول بشر، «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله».

وأقسم أن لا يقول الشعر بعد ذلك أبدًا، حتى جاء في أحد الأيام عمر بن الخطاب أثناء خلافته وقال للبيد: «أنشدني بشيء من الشعر»، فقرأ من سورة البقرة

وآل عمران، ثم قال: «والله ما كنت لأقول الشعر وقد حفظت سورة البقرة وآل عمران..».

صور عجيبة تلح على الحس والوجدان، وتجتذب إليها الالتفات، وتسترعي الانتباه، وتسترق الأسماع وتبهر الألباب وتستولي على الأحاسيس والمشاعر، ويقف أمامها دهاقين الكلام حيارى يتساءلون كيف نظمت هذه الصورة؟ وكيف تكونت؟ ثم لا يجدون من يجيبهم على تساؤلاتهم، لأن البشر مهما أوتوا من البراعة والبيان لا يمكنهم الوصول إلى معرفة سر نظم القرآن.

المصادر:

دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن. الدكتور المحمدي عبد العزيز الحناوي.

إعجاز القرآن البياني. الدكتور عائشة عبد الرحمٰن بنت الشاطئ.

من روائع القرآن الكريم للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

إعجاز القرآن مصطفى صادق الرافعي.

ياسر محمود الأقرع (مبحث: يوسف عليه السلام وامرأة العزيز).

الأستاذ عبد الرحيم الشريف ماجستير في الدراسات الإسلامية.

الأستاذ فاضل السامرائي.

المهندس عبد الدائم كحليل.

www.55a.net